# الإبداع والازدهار

## في سياق استئناف مسيرة الحركة الحضارية الإسلامية

التحرير

**ملخّص**

الإسلام في أحكامه متحرّك متجدّد، لكنه يقوم على أصول ثابتة. وهذا التحرّك والتجدّد لا يتحقق إلاّ بالإبداع. أمتنا بحاجة لأن تميّز بين البدعة والإبداع، بين التجديد السرابي الزائف، وبين التجديد الحقيقي الذي (ينفع الناس). من الأخطار التي تصيب الحركة الحضارية للأمم هو وقوعها في الجدل وتركها العمل، والإبداع يرتبط بالعزّة، وهذا ما يؤكده الواقع والدين. ومن موانع الإبداع في عالمنا الإسلامي عدم قدرتنا على التواصل بسبب غياب ثقافة الاستماع وقيام الحواجز والسدود بين بلدان المسلمين.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«ثقافتنا» تهتم باستئناف مسيرة الحضارة الإسلامية، وهذا الاستئناف ليس سوى تأهيل الأمة لأن تُبدع وتزدهر على مستوى متطلبات العصر.

دعوة العبد الصالح الإمام الخامنئي لاعتبار هذه السنة الهجرية الشمسية(*) سنة إبداع وازدهار تأتي ـ إذن ـ في سياق الهدف الكبير: استئناف مسيرة الحركة الحضارية الإسلامية.

لذلك نقف في أول عدد من هذه السنة عند بعض محطات الإبداع والازدهار في سياق استئناف مسيرة الحركة الحضارية الإسلامية.

(١)

## الإبداع والمشروع الديني

الإبداع يعني الإتيان بشيء جديد.. وهل يلتقي هذا مع المشروع الديني الذي يعتمد على نصوص دينية مقدسة ثابتة لا تتغير؟!

هذا السؤال فَرَضَ نفسه على الساحة الإسلامية على أثر عاملين:

الأول: اتخاذ الغرب قدوة إثر الهزيمة النفسية التي مُني بها المسلمون بعد الغزو الاستعماري، والغرب كان يعاني من وقوف الكنيسة أمام كل إبداع فكري أو علمي، ولم يتطور إلاّ بعد أن تخلّص من جمود الكنيسة الغربية،

*- مبدأ تاريخ السنة الهجرية الشمسية هي هجرة رسول الله(ص)، لكن السنة تحتسب على أساس دوران الارض حول الشمس، مثل السنة الميلادية. من هنا فهي هجرية شمسية بينما الهجرية القمرية يتم الحساب فيها على أساس حركة القمر حول الأرض. والشهر الشمسي يزيد على الشهر القمري بحدود ١٢ يومًا، ولذلك كان الفرق بين السنتين الهجرية الشمسية والهجرية القمرية اثنتين وأربعين سنة تقريبًا. وبسبب صعوبة الاعتماد على التاريخ الهجري القمري في الشؤون الإدارية اتخذت معظم البلدان الإسلامية التاريخ الميلادي أساسًا لأعمالها، بينما بقي التاريخ الهجري معمولاً به في إيران بالحساب الشمسي.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن هنا دعا بعض أصحاب التنوير الفكري في عالمنا الإسلامي إلى التخلّص من المؤسسة الدينية باعتباره الطريق الوحيد للتقدم!!

الثاني: حالة التخلّف التي سادت في العالم الإسلامي بعد هزيمته أمام الغزو الغربي، وهذه الحالة فرضت نفسها على الفهم الديني، فاقترن الدين بـالتخلّف والتحجّر والرجعية. واتخذ بعضهم من هذا الفهـم المتخلّـف المتحجّـر للـدين، وكأنه يمثل حقيقة الدين!!

بسبب هذين العاملين ثارت هذه الإشكالية بين الإبـداع والـدين. وهـي إشكالية استوعبت مساحة كبيرة مما دار في الساحة الفكرية الإسلامية خلال القرن الماضي.

لقد كتب الباحثون والدعاة حـول: التطـور والثبـات في حيـاة البـشرية، ومعركة التقاليد، ودعوة الإسلام إلى العلم، وعطـاء الحـضارة الإسـلامية في عصور الازدهار، وفضل الحضارة الإسلامية على النهضة الأوربية و... وكلها تتجه نحو الإجابة على سؤال التعارض بين الإبداع والدين.

والغريب أن هذه المسألة طُرحـت أيـضا في إيـران بعـد انتـصار الثـورة الإسلامية، وبعد دعوة الإمام الراحل المؤسـس إلى الاسـتفتاء حـول نظـام الجمهورية الإسلامية. ولذلك تصدّى للإجابة عليها الأستاذ الشهيد مرتـضى مطهّري في الأيام الأولى بعد الانتصار، في مقابلة تلفزيونية قال فيها:

«تطورّ الزمن، وثبات الأحكام الإسلامية، يثيران دومًا هذه الـشبهة الـتي ذكرتها، كيف يمكن أن ينسجم هذا الثابت مع ذاك المتطور.

مسألة تطور الزمن، حقيقة ثابتة لاشك فيها، لكن هـذه الحقيقـة تنطـوي على مسألة يغفل عنها البعض.

المسيرة التي يطويها الفرد الإنساني والمجتمع الإنساني، تشبه مسيرة قافلـة



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متحركة سائرة متنقلة من محطة إلى أخرى. هذه القافلة، لا تبقى ساكنة وثابتة في محطة معينة، بل تستمرّ في السير مغيّرة محطاتها، لكنّها لا تغير طريق سيرها في هذا التنقّل.

القافلة متحركة، لا ينبغي لها أن تقف في نقطة معينة من طريقها، لكن الطريق الذي تطويه نحو هدفها واحد.

الفرد والمجتمع لا يمكن أن يكونا ساكنين، ولا ينبغي أن يمكثا في نقطة معينة من المسير، فذلك معارض لقانون الطبيعة، لكن مسير التكامل للفرد والمجتمع واحد لا يتغير.

تُرى هل من الضروري أن يغيّر الفرد والمجتمع طريقهما التكاملي في كل مرحلة من مراحل حياتهما؟

هل من اللازم أن ينتخبا في كل مرحلة طريقًا جديدًا وهدفًا جديدًا؟ كل المسيرة التكاملية للبشر خط ثابت، يشبه مدار النجوم. الحركة مستمرة، والمدار ثابت.

هل نستطيع أن نعتبر النجوم ثابتة ساكنة لأنها تتحرّك على مدار ثابت واحد؟ كلا طبعًا، حركة النجوم لا تستلزم تغيير المدار باستمرار.

هذه المسألة تُطرح بنفس الشكل على صعيد حركة الإنسان والمجتمع.

مستلزمات الحياة الإنسانية ومظاهر المدنية تتطور باستمرار، ولكن تُرى، هل إن إنسانية الإنسان والقيم الإنسانية، والكمال الإنساني هي الأخرى حقائق متغيرة متبدلة؟!

هل إن الموازين الإنسانية التي نؤمن بها اليوم، هي غير الموازين التي كان يؤمن بها أجدادنا وغير الموازين التي سيؤمن بها أحفادنا؟!

هل سيأتي يوم تَعتبر فيه البشريةُ «تشومبي» و«الحجّاج» مثالاً للإنسانية،



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعتبر «لومومبا» و«أبا ذر» مثالاً لأعداء الإنسانية؟!! هذا مستحيل.

الإنسان ــ كما قلنا ــ غير ثابت، لكن مداره ثابت، ومن هنا فهو يمتلك معايير هي بمثابة دلالات كي لا يضل الطريق. فكما أن المسافر يحتاج إلى علامات ودلالات كي لا يضلّ الطريق كذلك الإنسان بحاجة إلى معايير ثابتة يهتدي بها في مسيره.

أوضحت في كتاب «حقوق المرأة في الإسلام» مسألة الإسلام والتطور، وكيف يواجه الإسلام متطلبات الحياة المتطورة.

ذكرت هناك أن «نوع» الإنسان، لم يتغير منذ أن ظهر على الأرض، وعدم تبدل الموجود البشري من نوع إلى آخر لا يعنى ثبات هذا الموجود في نقطه معينة، بل إنه طوى ولايزال يطوي مسيرته التكاملية. لكن قانون الخلقة يبدو قد نَقَلَ مَهمةَ التكامل من مرحلة الجسم وأعضاء البدن إلى مرحلة النفس والروح والمجتمع.

لو أن تغيّرًا طرأ على النوع الإنساني لاستلزم تغيرًا في القوانين التي تتحكّم فيه.. لكن ثبات النوع الإنساني خلال المراحل التاريخية الأخيرة ـ على الأقل ــ يتطلب بالضرورة مجموعة من مبادئ ثابتة ترتبط بطبيعة الإنسان وكماله، على أنّ الإنسان يحتاج أيضًا إلى قوانين متغيرة تسد احتياجاته المتطورة خلال انتقاله من محطة إلى أخرى، أو من مرحلة إلى أخرى خلال مسيرته التكاملية.

الإنسان يحتاج إذن إلى قوانين ومبادئ ثابتة ترتبط بحركته المدارية، وإلى قوانين متغيرة ترتبط بتنقله المرحلي.

أحكام الإسلام موضوعة لحركة الإنسان المدارية الثابتة، لا المرحلية المتغيرة، غير أنّ الإسلام أعدّ المقدمات والتمهيدات والأطر اللازمة لسد



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

احتياجات الإنسان المتغيرة.

شرحت في كتابي المذكور خصائص القوانين الثابتة والمتغيرة في الإسلام بذكر بعض الأمثلة:

أمر الله تعالى الجماعة المسلمة أن تعدّ نفسها دفاعيًا إلى المستوى الذي يخشاها فيه الأعداء.

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الانفال/٦٠)

هذه الآية تحدد واحدًا من المبادئ الاجتماعية الإسلامية، وهو مبدأ ثابت لا يتغير، وضرورته قائمة في الماضي والحاضر والمستقبل.

التطبيق العملي لهذا المبدأ ينعكس في السنة النبوية بشكل حثّ من الرسول القائد على السبق والرماية. واشترك الرسول بنفسه في هذه العمليات والمسابقات، والفقه الإسلامي أوصى بالسبق والرماية أيضاً انطلاقًا من السنة النبوية. لكن هذا الحكم الفقهي لم يعد له مصداق حاليًا، إذ إن زمانه قد مضى وليس من الضروري القيام بتلك العمليات اليوم بنفس النية السابقة.

مبدأ «وأعدوّا لهم..» يرتبط بمدار حركة الإنسانية، والسبق والرماية ليس لهما أصالة، بل يرتبطان بمرحلة معينة من مراحل المسير، وفي مرحلتنا الراهنة ينبغي للمجموعة المسلمة أن تنفّذ هذا المبدأ بشكل يتناسب مع ظروف هذه المرحلة ومتطلباتها.

ومثال آخر يرتبط بمبدأ تبادل الثروة بين المسلمين أوضَحَته الآيةُ الكريمة:
﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ (البقرة/١٨٨).

هذه الآية تنصّ على أنّ تبادل الثروة ينبغي أن يتخذ شكلاً مفيدًا من الناحية الاجتماعية، وأن يتّجه نحو الاحتياجات الأساسية للمجتمع.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لو أراد شخص أن يشتري بماله، الذي اكتسبه عن طريق عمل مثمر، شيئًا لا فائدة فيه، كأن يشتري كيسًا مملوءاً بالحشرات الميتة، فإن هذه الصفقة باطلة في نظر القرآن.

ولو استطاع العلم في تطوره أن يستفيد من هذه الحشرات، فإن عملية البيع تصبح صحيحة بعد أن كانت باطلة ومحرَّمة من قبل.

الفقيه، هو الذي يعيّن المصداق الواقعي للحكم الذي تنص عليه الآية في كل زمان، وبموجب هذا التشخيص يفتي بجواز هذه المعاملة وبطلان تلك.

الفقهاء واجهوا مسألة شبيهة بالمسألة السابقة ترتبط ببيع «الدم» وشرائه. لقد كانت معاملة بيع الدم وشرائه باطلة في الماضي، يوم كان الدم مادة لا نفع فيها ولا فائدة، إذ هي من نوع أكل المال بالباطل. واليوم فقد أضحى الدم ــ على أثر تطور العلم ــ مادة حياتية، ولم تعد المعاملة عليه تنطبق على أكل المال بالباطل. فالحكم الجزئي هنا قد تغيّر بتغيّر المصداق. لكن الحكم الكلي باق لا يتغير.

الاجتهاد ينهض بالدور الأساسي في تطبيق الأحكام الكلية على المصاديق الجديدة. وواجب الفقيه أن يدرس المسائل الجزئية المتغيرة بتغيّر الزمان في إطار الأحكام الكلية الثابتة التي جاء بها الوحي، ويخرج من دراسته بالأحكام الفقهية المناسبة».

الشهيد مطهّري في هذا المقطع من مقابلته يريد أن يؤكد على أن الإسلام في أحكامه متحرّك متجدّد لكنه يقوم على أصول ثابتة. وهذا التحرك والتجدّد لا يتحقق إلاّ إذا كانت وراءه روح مبدعة مطوّرة، متفهّمة للاصول الثابتة وللمتغيرات.. وهذا هو «الاجتهاد».

الابداع في كلّ مجال من المجالات ــ لا المجال الفقهي فقط ــ يحتاج إلى حركة فكرية أصيلة هي الاجتهاد.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٢)

## الإبداع والكلمة الطيبة

الكلمة الطيبة تقابل الكلمة الخبيثة.

الكلمة الطيبة:

* ﴿كشجرة طيبةٍ

* أصلها ثابت

* وفرعها في السماء

* توتي أكُلَها كلَّ حين بإذن ربّها﴾

والكلمة الخبيثة:

* ﴿كشجرة خبيثة

* اجتُثّت مِنْ فَوقِ الأرض

* مالها مِنْ قَرار ﴾

والكلمة هي سنّة الله في الأرض: ﴿وتمت كلمة ربك...﴾، ﴿ولـولا كلمـة سبقت.. ﴾ ﴿إن الذين حقّت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون﴾.

والكلمة الطيبة هي سنّة الكمال والبناء في الكون.. والكلمة الخبيثـة هـي سنة التخلّف والهدم في ساحة الوجود.. كلّ شيء يجري وفـق سـنّة.. البنـاء والهدم.. الإيمان والكفر.. الرضـوان والعـذاب.. إحقـاق الحـق وقطـع دابـر الكافرين.. والمنطلق الأساس لتحقـق هـذه الـسنن إرادة الإنـسان: ﴿حـتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

والكلمة الطيبة في الآية الكريمة لها علاقة بما نحن مهتمون به في هذا العـام الهجري الشمسي.. بالإبداع، فهي كشجرة طيبة..



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والشجرة رمزٌ للنماء والعطاء والازدهار.. وذات قدرة متواصلة على النمو والتكامل.

وارتباط الإنسان بالشجرة قديم قبل أن يهبط على ظهر الأرض.. ولقد بدأ استخلافه في الأرض منذ أن اقترب من تلك الشجرة.. ورأى نور الله منذ أن علم أنه يوقد من شجرة مباركة.. وسمع نداء ربّ العالمين ﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.

سنة البناء والتكامل والإبداع مقرونة إذن بالشجرة.. لكنها شجرة طيبة. وصفات هذه الشجرة الطيبة كما في الآية أنّ: ﴿أصلها ثابت﴾. وثبات الأصل لا يعني الجمود والركود.. بل يعني الحركة القائمة على أصول ثابتة من سنن الكون.. فللنموّ والإبداع سنّته، وإذا تخلّى عن هذه السنن الثابتة يبتعد عن مدارج النموّ والكمال والإبداع.

أما فروع هذه الشجرة فتنمو نموًا لا حدّ له: ﴿وفرعها في السماء﴾. هذا النموّ المتواصل يتحقّق حين تقوم هذه الشجرة على أصول ثابتة من سنن الكمال والإبداع في الكون.

وحين تكون هذه الشجرة الطيبة قائمة على أصول ثابتة من سنن الكمال فإنها: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾.

﴿بإذن ربّها﴾ تأكيد على السنة الإلهية في عطاء هذه الشجرة.. إنها مستمرة في العطاء دونما توقّف.

الإبداع ـــ إذن من خلال عرض الآية لسنّة الشجرة الطيبة ـــ يقوم على أسس ثابتة من سنن الكمال في الكون.

لكنه ينمو باستمرار مقدمًا العطاء والخير والبركة.

الشجرة الطيبة يجب أن لا يختلط أمرها بالشجرة الخبيثة..



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الشجرة الخبيثة مشمولة بسنّة الدمار والانحراف ونكد العيش لأنها: ﴿اجتثت من فوق الأرض﴾ فهي لا تتصل بالأصول الثابتة من سنن الكمال..

ثم إنها ﴿مالها من قرار﴾ وهو تعبير عظيم عن حركة ليس لها هدف ومقصد، تبدو وكأنها متحركة، لكنّها حركة الانقطاع عن الجذور، لا حركة النماء والازدهار والكمال.

أمتنا في تطلعها نحو الإبداع لابد أن تميّز بين الشجرتين، وبين الحركتين، كي لا تتجه نحو إبداع هو في الواقع سراب يحسبه الضمآن ماءاً.

(٣)

## الإبداع والبدعة

الإبداع والبدعة كلاهما الإتيان بشيء جديد.. ولكن أين ذاك الجديد من هذا الجديد..

الإبداع يقوم على عقل، والبدعة تنطلق من هوى النفس.. الإبداع تطوير للحياة الإنسانية، والبدعة مسخ للمسيرة البشرية..

الإبداع وراءه علمٌ ومعرفة، والبدعة وراءها جهل وخُرافة.

وعلى مرّ الأجيال كان هناك مبدعون أثروا الحياة البشرية وأغنوها بالعلوم والمعارف والفنون، كما كان هناك من أتى بجديد لم يَعُدْ على المجتمع إلاّ بالضجيج والإثارات والقيل والقال تاركًا وراءه المشاكل والمصائب واللعنات.

الإبداعُ توجيه حركة البشرية على مسير بديع السماوات والأرض، والبدعة انحراف عن الخط الصحيح.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإبداع يصدر عن نفس سليمة متعادلة متوقّدة، والبدعة تصدر عن روح مريضة تبحث عن الشذوذ والشواذ.

من هنا لابدّ للمجتمع الذي يتّجه نحو الإبداع أن تكون له قدرة التمييز بين الجديد النافع، والجديد الذي لا نفع فيه، إن لم ينطو على السمّ الزعاف.

عالمنا الإسلامي ــ بعد سقوطه أمام الغزو الاستعماري ــ ظهر فيه مبدعون قدّموا المشروع الإسلامي للأمة وفق أسس أصيلة ومعاصرة، ورسموا لها طريق التحرّر من تخلّفها وفقَ فهم عميق للرسالة وللواقع. وظهر فيه على الجانب الآخر مبتدعون يتحركون وفق روح الهزيمة الداخلية أو الأهواء النفسية أو عُقَد الوضع المتخلّف، فأثاروا زوبعات في المجتمع الإسلامي هزّت الهوية أو كرّست التخلّف، وفرّقت الأمة شيعًا.

من منطلق «ثقافتنا» نفهم الإبداع على أنه كل عمل يكرّس روح العزّة والكرامة، ويرسّخ الاعتزاز بالهوية، ويبعث الأمة المسلمة على أن تفتخر بنفسها بين أمم الأرض.

ومجالات الإبداع التي تحقّق الأهداف المذكورة كثيرة:

مجال تقديم مشاريع أسلمة الحياة في مجالاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية.

مجال صيانة الأمة من الغزو الثقافي والمحافظة على الهوية الإسلامية في دنيا العولمة.

مجال التواصل الإيجابي البنّاء مع العالم لإيصال الفهم الحضاري للإسلام بخطاب عالمي إنساني.

مجال توفير ما تحتاجه الأمة من مقوّمات الحياة كي لا تُعتبر أمة مستهلكة لإنتاج الآخرين.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجال تطوير الآداب والفنون والعلوم كي تساهم في الإنتاج الحضاري لأمم الأرض.

مجال رفع مستوى الأمة لتخرج مما يسمونه العالم الثالث إلى منافسةٍ للدول المتقدمة.

مجال رفع الكفاءة الدفاعية للأمة كي تصبح مرهوبة الجانب بين أمم الأرض، ولكي لا تكون عرضة لنهب الأطماع الدولية.

هذه وغيرها من مجالات الإبداع التي يجب أن يكون بين دول العالم الإسلامي تعاون جادّ لتحقيقها.

وبدون الاتجاه نحو الإبداع سيظهر مبتدعون مدفوعون بمرض نفسي أو وازع أجنبي، ليثيروا الفتن والاضطرابات والشكوك والأوهام والخرافات، مما يؤدي كما ذكرنا إلى تكريس حالة التخلّف والتمزّق.

## (٤)

## الإبداع فيما ينفع الناس

إذا كان الإبداعُ تقديمَ الجديد على ساحة الفكر والعمل والإنتاج فيجب أن يكون إبداعًا فيما هو نافع للناس.

والقرآن الكريم يؤكد على التفريق بين ما ينفع ولا ينفع، وإن تشابها في الظاهر بقوله سبحانه:

* ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا
* فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا
* وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ
* كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

* فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء
* وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ
* كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾

هذا التمثيل القرآني يحمل رسالة على غاية من الأهميّة. هي ضرورة التفريق بين الزبد الرابي الطاغي المنتفش على سطح السيل، وبين ما يحمل معه السيلُ من ترابٍ فيه فلزات ثمينة يتّخذها الناس للحِلية أو وسيلة مفيدة للحياة.

نحن في عام الإبداع بحاجة إلى تكريس فهم اتجاهنا في الإبداع، إنه بعبارة موجزة نحو ما ينفع الناس. فالنافع هو الباقي، أما الزبد فيظهر على السطح حينًا ثم يزول..

وما أكثر ما ظهر في تاريخنا الإسلامي من موجات فكرية وكلامية وفلسفية لم تخلّف وراءها الاّ بلبلة الأفكار وإلاّ القيل والقال!!

كم مِنْ عمر الساحة الفكرية الإسلامية ضاع في مسائل فقهية لا علاقةَ لها بالحياة، وببحوث كلامية لا طائل تحتها، وبمناقشات فلسفية لا تكشف الحقيقة بل تزيدها غموضًا وتعقيدًا!!

وكم فرّط العالم الإسلامي في مجال اكتشاف مكنونات الحياة!!

صحيح أن العلوم الإنسانية لها الأولوية في بناء المجتمع، لكنها القاعدة التي يجب أن يقوم عليها البناء. وأين بناؤنا الحضاري اليوم بين أمم الأرض؟ المشكلة إذن في طريقة تناولنا للعلوم الإنسانية، يجب أن لا تكون هي الهدف، وأن لا تكون هي المحور الذي تُكتب عليه الحواشي والشروح، بل يجب أن تكون هذه العلوم كما ذكرنا قاعدة لبناء الإنسان المتحرك المبدع في جميع مجالات الاستخلاف.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الأخطار التي تصيب الحركة الحضارية للأمم هو وقوعها في الجَدَل، وتركها العمل، كما في النصوص الدينية. ولذلك جاء في الدعاء: اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع..

ولابدّ أن نذكر ونحن في مجال الإبداع الذي ينفع الناس أن جامعاتنا وحوزاتنا العلمية ومؤتمراتنا ومراكز أبحاثنا يجب أن ترتبط بالإبداع الهادف.. أن تأتي دائمًا بشيء جديد له ارتباط بمصلحة معنوية أو ماديّة لهذه الأمة.

العرفاء الحقيقيون أدركوا ما ينبغي أن يتجه إليه الإنسان في حركته المقاصدية، ودعوا إلى صحوة ويقظة تبعده عن القيل والقال. ولقد عبّر الشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣-١٠٣١هـ) عن ذلك حين قال:

قد صرفنا العمرَ في قيل وقال ... يا نديمي قم فقد ضاق المجال..
قم وخاطبني بكل الألسنهْ ... علّ قلبي ينتبه من ذي السِّنهْ
إنه في غفلة عن حاله ... خابط في قيله مع قالِهِ
كل آن فهو في قيد حديد ... قائلاً من جهله هل من مزيد

ولعلّ هذه الصحوة هي التي أيقظت الشيخ بهاء الدين ودفعته لأن يقدّم في مجال الأدب والفقه والهندسة والرياضيات والفلك ما يُذهل. هذه الصحوة هي التي جعلته يبدع ويبتكر ويبتعد عن المراوحة في مكانه كالذي كان يفعله التقليديون في زمانه.

(٥)

## الإبداع والعزّة

شاء الله أن يكون خليفته في الأرض عزيزًا كريمًا، وبهذه العزّة والكرامة يستطيع أن يتحرك ويبدع على ساحة الحياة، وإذا فَقَدَ هذه العزّة لأسباب تاريخية أو اجتماعية، فقدَ التحرّك وماتت روح الإبداع فيه.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونستطيع أن نُرجع كل حركة مبدعة في التاريخ إلى استشعار روح العـزّة. ماضينا الإسلامي وحاضرنا يشهد على ذلـك. في الماضـي أوجـد الإسـلام مجتمعًا يرى أنه يشعر بالسموّ والرفعة بسبب قربه من الله، وبسبب ما يحملـه من مسؤوليات كبيرة تجاه البشرية ضمن إطار الأمر بالمعروف والنـهي عـن المنكر، ومن مهامٍ جسام في الدفاع عـن المسـتضعفين والمظلـومين. شـعرت الجماعة المسلمة الأولى بأنها مكلّفة بالتعلّم والتفكّـر في الآفـاق والأنفـس . والعلم يصعّد روح العزّة والتكريم لدى الإنسان حـين يكـون بـوازع طلـب اكتشاف حقائق الكون والحياة، وتسخير الطبيعة لصالح الإنـسان. كـلّ ذلـك عمّق روح الشعور بالعزّة لدى المجتمع المسلم، فاتجه نحو الإبداع والازدهـار، وبناء الصرح الحضاري الذي تفخر به الإنسانية جمعاء.

وبالعكس حين انتكس العالم الإسلامي في القرون الأخيرة، وشعر الإنسان المسلم بالدونية والضعف، ضعفت روح الإبـداع، وسـادت حالـة الاجتـرار، وسيطرت نظرة «ليس بالإمكان أحسن مما كان».

ثم حدث في العقود الأخيرة ما أكد ارتباط روح العزّة بالإبداع.

حين انتصرت حركة الأمة المسلمة في إيران، وأقامت بيدها دولة الإسلام المنبثقة من إرادتها، تصاعدت روح العزّة في النفوس، وتبعًـا لـذلك تفجّـرت ينابيع الإبداع. كل المنصفين يشهدون أن ما سجلته الجمهورية الإسلامية بعد انتصار الأمة في إيران كان هائلاً بكل المقاييس، رغم ما واجهته من عوامـل مضادّة كانت هائلة أيضا بكل المقاييس.

المقاومة الإسلامية في جنوب لبنـان طَفَـح فيهـا الـشعور بـالعزّة، نتيجـة لاستلهامها روح حركة الأمة في إيران، فحققت معجزةً في الإبداع على صعيد المواجهة والمقاومة والبناء.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كاد الشعور بـالعزّة بعـد انتـصار الأمـة في إيـران أن يـسري إلى العـالم الإسلامي، لكنه طُوّق وعُتّم عليه، وحورب، وهكذا الأمر بالنسبة إلى انتصار حزب الله في لبنان. هذه الحرب التي شُنت ضد امتداد العزّة ليست حربًا ضد دولة أو حزب، بل هي حربٌ من أجل أن لا يشعر المسلمون يومًا بـالعزّة، ولا يعقب هذا الشعورَ تفجيرٌ في قدرات الإبداع والبناء الحضاري.

ارتباط العزّة بالإبداع يؤكده الدين، ويثبته الواقع، وتؤكد عليه الدراسـات الاجتماعية منذ أقدم العـصور. فهـذا أفلاطـون يتحـدث عـن شـيء اسمـه «التيموس» ويعتبره وراء كل حركة بشرية في التاريخ، ويعرّفـه بأنـه رغبـة الجماعة الإنـسانية في كـسب اعتـراف الآخـرين بهـا، ولا يقابـل ذلـك في المصطلحات العربية سوى العزّة.

ومن فكرة أفلاطون بنى هيغل نظريته في فلـسفة التـاريخ، وسـار علـى هذاالطريق فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ.

مما تقدّم نفهم أن الداعين إلى الإبداع يجب أن يضعوا عزّة الأمـة في رأس قائمة اهتماماتهم، مقابل ما يفعله الأعداء الذين وضعوا عمليـة إذلال هـذه الأمة في مقدمة اهتماماتهم.

ثقافتنا تحتاج إلى جهد كـبير لتكـريس مفـاهيم عـزّة الإنـسان المـسلم وكرامته. أقول إلى جهد كبير لأن عزّة الإنسان وكرامته أصـل غائـب عـن ثقافتنا المعاشة، خاصة في خضمّ هذه النزاعات الدموية التي تشهدها ساحتنا الإسلامية، والتي توحي بأن الانسان في نظرنا أرخص موجود على الأرض. بكل سهولة تُـسفك الـدماء، وتُنتـهك المقدسـات والأعـراض، وتُـسلب الأموال، وتُلصق التهم بالأفراد، وتمارَس أساليب القذف والتشنيع والـتكفير. صحيح أن كثيرًا من هذه الحالات وراءها يـد أجنبيـة تريـد إذلالنـا بـشتى



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطرق، ولكن يجب أن لا ننسى دورنا أيضًا في إهدار كرامة الإنسان والاستخفاف بعزّته.

(٦)

## الإبداع والتعارف

الآية التي تتحدث عن تعارف المجموعات البشرية لها دلالات كبرى:

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ!!

* إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى.

* وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ:

* لِتَعَارَفُوا

* إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

الخطابُ للناس جميعًا يحمل دلالة عدم اختصاصه بجماعة دينية أو قومية معينة.

وخَلقُ البشر من ذكر وأنثى.. للتعارف، له دلالة عدم تفوّق جنس على جنس، وضرورة أن يكون بين الجنسين تعارف بالمعنى الذي سنذكره. وهو تعارف بين مخلوقين يختلفان في كثير من الأمور،لكنه اختلاف يؤدي إلى الكمال حين يكون بينهما تعارف.

وجَعلُ البشر شعوبًا وقبائل إشارة أيضا إلى تعدّدية في الجنس البشري، واختلاف بينهم بسبب البيئة والمجتمع والتاريخ والعادات والتقاليد والأذواق.. لكنه اختلاف يؤدي أيضا إلى كمال إن كان بينهم تعارف.

ثم يأتي ذكر سبب هذا التنوع.. لتعارفوا. والتعارف ليس أن تعرف اسمي وأعرف اسمك.. إنه تبادل معرفي بين البشر.. وهذا التبادل المعرفي يؤدّي إلى إبداع ونماء وحركة كمال. ثم إنّ أكرم الناس عند الله أتقاه..



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتقوى كما يعرّفها المرحوم محمود شلتوت تلتقي مع هذا الفهم الحضاري للآية حيث يقول:

«أما تقوى اللّه تعالى، فهي ترفع في معناها العام إلى اتقاء الإنسان كل ما يضرّه في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والكمال الممكن في الدنيا والآخرة. والتقوى ليست خاصة بنوع من الطاعات، ولا بشيء من المظاهر، وإنما هي كما قلنا، اتقاء الإنسان كل ما يضرّه في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين الكمال الممكن. ومن ثمرات التقوى حصول الفرقان: (ما يفرّق به المرء بين الخير والشرّ والضارّ والنافع في هذه الحياة) فالعلم الصحيح، والقوّة، والعمل النافع، والخُلُق الكريم، وما إلى ذلك هو من آثار التقوى، والتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة» (شلتوت ــ تفسير القرآن الكريم/ ٥٧١) .

أعود إلى دور التعارف والإبداع فأقول: إن لنا في تاريخنا نماذج من تعارف أدّى إلى إبداع وازدهار. حدث ذلك منذ أن تشرفت إيران بالإسلام فانبثق عن ذلك في السنوات الأولى التي اعقبت الفتح تعارف بين الإيرانيين والعرب.. وانبثق على أثر ذلك إبداع علمي هائل في البصرة والكوفة، ثم ازدهر في بغداد، وانتشر هذا الازدهار في ربوع العالم الإسلامي من الأندلس غربًا حتى بلاد ماوراء النهر شرقًا.

وهنا أشير إلى مسائل ترتبط بثقافة التعارف. منها: ضرورة تعليم أبناء الأمة «أن يستمعوا». الاستماع أساس مهم للتعارف. وهل هو مفقود في عالمنا الإسلامي؟ نعم إلى حدّ كبير.

انظر إلى الحوارات التي تدور في الفضائيات، ليس فيها غالبًا استماع، بل كلا الطرفين يتكلمان!! يتكلّم الأول بلسانه، والثاني يتكلّم مع نفسه ليردّ على



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صاحبه.. الاثنان يتكلّمان.. ليس ثمة مستمع. وهذه الحالة سارية في تعاملنا على مستوى واسع. رغبتنا في الردّ والإفحام والإلجام والإسكات تفوق بكثير رغبتنا في الاستماع.

والسبب هو وجود طاغوت الذاتية في نفوسنا، لم نتجه إلى الله بل نتجه إلى طاغوت ذاتياتنا. الطاغوت يمنعنا من الاستماع، ويمنعنا بالتالي من انتخاب الطريق الصحيح. أمعن النظر في قوله تعالى:

* ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا
* وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ
* لَهُمُ الْبُشْرَى﴾

وماهي البشرى؟

* ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.

والآية الكريمة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعليق في دلالتها على أهمية «الاستماع». والاستماع هو الشرط اللازم للتعارف.

وأشير أيضا في هذا المجال إلى ما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم من حواجز وسدود تقف أمام هذا التعارف.

لقد كان عالمنا الإسلامي منذ أكثر من ١٢ قرنًا قرية صغيرة، يتم فيها التبادل المعرفي بين أرجائه رغم بدائية الاتصالات والمواصلات. واليوم ونحن في عصر مايسمى ثورة السرعة والاتصالات لا يعرف بعضنا بعضًا، بل ما يحمله بعضنا عن الآخر من معلومات مستند إلى ما يضخّه أعداء الأمة في أدمغتنا ونفوسنا. وهذا هو سبب تكريس الانفصال اليوم بين المذاهب والقوميات والشعوب والقبائل في عالمنا الإسلامي.



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عدم قدرتنا على التواصل بسبب غياب ثقافة الاستماع، وقيام الحـواجز والسدود، يحول دون تحقق «التعارف»، وبالتالي يحول دون الإبداع.

ولذلك فإن المهتمين بتفجير طاقات الإبداع في أمتنا ينبغي أن يعملوا على إحلال التعارف بين شعوب منظومتنا الإسـلامية، علـى مـستوى الـشعوب والعلماء والمثقفين والفنانين والجامعيين والإعلاميين، لمواجهة تحـدّي ضـمور روح الإبداع في الأمة.

ونختم هذا المقال بما جاء في خاتمة مشروع الاسـتراتيجية الثقافيـة للعـالم الإسلامي الذي أعدته الإيسسكو حيث يقول:

«والواقع أن كل هذه التحديات الداخلية والخارجية وما تحمله من انعكاسات تفرض إعادة النظر في الوضع الثقافي الإسلامي كله، وإعطاءه الحركية والحيوية اللازمتين، وجعله في مستوى المعطيات العالمية المتطورة. وإذا أخذنا كل هذا في الاعتبار، فسندرك أننا لن نتجاوز أزمتنا ( أي أزمة الثقافة في العالم الإسلامي) إلا بمشروع إسلامي نهضوي شامل ذي أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية وتعليمية وثقافية، لا يتجاهل الاختلاف الثقافي مع الآخر، بل يعدُّه حافزًا إلى الإبداع والتجديد، يسعى إلى ترسيخ خيار الشورى والديمقراطية، وإعلاء شأن الإنسان وكرامته، ويصون حقوقه، ويتعامل مع تيارات الحضارة العالمية بأفق رحب يتجاوز الانغلاق على الذات، ويستند أساسًا إلى القدرة على نقد الذات، وإعادة إنتاج المعرفة من قلب التعامل مع حقائق العصر، والحد من الآثار السلبية للعولمة وحسن توظيف التقنيات الحديثة للمعلومات، والاستفادة من خدمة الأنترنيت، ودعم الحوار واحترام التنوع الثقافي».



PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com